دور الأسرة في التربية (١)

التربية لغة جاء في لسان العرب في مادة «رب » مما يتعلق بموضوعنا :«ورَبّ ولده والصبي يربه ربا وربيه تربيباً وتربة ، بمعنى: رباه ، وفي الحديث: لك نعمة تربها ، أي تحفظها وتراعيها وتربيها ، كما يربي الرجل ولده ، وفي حديث ابن ذي يزن: أسد تربب في الغيضات أشبالا أي تربي ، وتربيه وارتبه ورباه تربية وترباه: أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية كان ابنه أو لم يكن ، والسحاب يرب المطر أي يجمعه وينميه والمطر يرب النبات والثرى وينميه.

الرباني: العالم المعلم ، الذي يغذو الناس بصغار العلم قبل كبارها ، وقيل: « هو من الرب بمعنى التربية ، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها».

(١) أ. د. محمد بنعزوز – مجلة الوعي الإسلامي – العدد (٥٤٥) – ديسمبر ٢٠١٠م.

نستنتج من التعاريف اللغوية لكلمة تربية ومشتقاتها المعاني الآتية:

الحفظ والرعاية وحسن القيام والولاية والتنمية والتدرج في التعليم من الجزء إلى الكل والوصول بالمربي إلى مرحلة التمام.

أما زمن التربية فهو الطفولة أي تهيئ الصبي لمرحلة الشباب والرجولة وتحمل مسؤوليته بنفسه ، ويمكن تقسيم هذه المعاني إلى قسمين:

قسم مرتبط بالرعاية والولاية وما تعلق بها من حفظ وحسن قيام.

وقسم مرتبط بالتنمية عن طريق التدرج في التعليم حتى يصل إلى حد التمام.

والتنمية تقتضي أصلا التدرج ، ولكن صعودا لا نزولا من نواحي مختلفة. . جسمية وعقلية ونفسية وروحية وإيمانية.

كلمة تربية في القرآن الكريم:

وقد وردت بعض مشتقات كلمة تربية في القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤ ﴾ [الإسراء:٢٤].

ونستشف منها ما يأتي:

(أ) أمر الولد بالترحم على والديه ، وهذا مظهر من مظاهر البر والاعتراف بالجميل.

(ب)التربية قام بها الوالدان معاً.

(ت) زمن التربية هو الصغر.

وقد فسرت هذه الآية بما يأتي: « وقل رب أرحمهما كما » رحماني حين « ربياني صغيراً ». والإنسان أحوج ما يكون إلى الرحمة وهو صغير ، لأنه حينها يكون ضعيفاً. ومن ثم فالرحمة في حد ذاتها عنصر من عناصر التربية البناءة ، لا يجب إغفاله بحال من الأحوال ، بل هو أول عنصر من عناصر التربية التي تزرع أصلاً في قلب الأم بعد وضعها لمولودها فتلقمه ثديها وتحوطه برعايتها

وحنانها وعطفها ، وهذه الأفعال كلها مشتقة من معنى الرحمة.

يقول تعالى حكاية عن فرعون وهو يعاتب موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ [الشعراء: ١٨]. نلاحظ من خلال هذه الآية ما يأتي:

١. التربية قام بها فرعون ومن معه ، أي زوجته في المقام الأول ، وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم حينما اعترضت على قتله ، كما يقتل باقي أبناء بني إسرائيل – خشية أن يبعث منهم رسول من لدن اللّه يحررهم من العبودية لفرعون ، ويقضي على ألوهيته المزعومة – يقول اللّه تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص: ٩] زمن التربية: بعد الولادة ، أي بدأ بتربيته الجسمية بالخصوص مباشرة بعد ولادته

حينما ألقت به أمه في اليم تطبيقاً لأمر الله كما أخبر بذلك القرآن الكريم.

٢. الوسط وهو ما أشارت إليه الآية بكلمة «فينا» وله تأثير كبير على تربية الإنسان. أما بالنسبة لموسى عليه السلام فلم يكن له تأثير سلبي في حياته. وهذا استثناء خاص بأحد رسل الله سبحانه.

فموسى عليه الصلاة والسلام رباه فرعون الظالم الذي يدعي الألوهية ومع ذلك كان صالحاً ونبياً مرسلاً.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر موازنا بين موسى الرسول وموسى السامري الكافر ، فالأول رباه فرعون والثاني رباه جبريل عليه السلام:

إذا المرء لم يخلق سعيداً من الأزل

فقد خاب من ربى وخاب المؤمل

فموسى الذي رباه جبريل كافر

وموسى الذي رباه فرعون مرسل

ومن هذين البيتين يتبين لنا أن الغاية من التربية هو السعادة ، أي وصول المربى إلى كماله « الجسمي والإيماني والعاطفي والنفسي والعقلي..» حتى تحصل له السعادة في الدنيا ، ومن حصلت له السعادة المبنية على الإيمان والإسلام حصلت له السعادة في الآخرة بفضل اللّٰه وكرمه.

التربية اصطلاحاً :

لا يختلف التعريف الأصطلاحي عن التعريف اللغوي ، بل إنه استمد منه أصلا ، إلا أن الاصطلاحي أكثر بياناً و إيضاحاً وتفصيلاً وتخصيصاً.

يقول الراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢هـ) في مفرداته:

« الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام ». وقريب من هذا التعريف تعريف القاضي البيضاوي « المتوفى سنة ٦٨٥هـ» في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل » الذي يقول فيه :

« الـرب في الأصـل بمعنـى التربيـة وهـي تبليـغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ».

ويرى د. علي أحمد مدكور أن التربية هي:

« إيصال الإنسان شيئا فشيئا إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها ، وبذلك يستطيع القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله » وفي هذا التعريف الذي انطلق مما وصل إليه الأقدمون ، نوع من التفصيل والتخصيص الذي يخرج بالتربية من المفهوم العام إلى المفهوم الخاص المرتبط بالتصور الإسلامي الذي يجعل منها تربية إسلامية.

بناء الشخصية المسلمة:

إن الهدف الأساس للتربية الأسرية هو بناء الشخصية المسلمة ولن تتمكن الوسائل التربوية الأخرى كالمدرسة والمجتمع من تحقيق هذا الهدف الأسما.

« فالبيت هو المؤثر الأول ، وهو أقوى العوامل التربوية جميعا «المدرسة والشارع والمجتمع » بحكم

التصاق الطفل به ، وقضائه أطول فترة من طفولته في داخله ، وبحكم أنه هو أول من يتسلم خامة الطفل ويؤثر في تشكيلها ». فالأسرة أو البيت عامل ثابت في حياة الطفل لا يتغير ، فأبواه وإخوانه وأقاربه هم هم ، أما العوامل الأخرى فهي متغيرة ومتحولة بتغير الأمكنة والأشخاص ، ولضعف الارتباط الموجود بين الطفل وبينها.

إن المدرسة الأولى للإنسان في حياته هي مدرسة الأسرة. . التي ترعاها في المقام الأول « الأم » التي تسهر على الحضانة والرعاية الأولى والتربية ، وقد عد حافظ إبراهيم الأم نفسها مدرسة كاملة تنهض بمهمة عظيمة حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها

أعددت شعباً طيب الأعراق

الأم مدرسة :

لذا يفترض في الأم أن تكون معدة لهذه المسؤولية الكبيرة ألا وهي التربية بأن تكون هي

نفسها قد تلقت في صغرها تربية إسلامية كاملة تخولها تلقينها إلى أولادها وتربيتهم على غرارها ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، لذا اشترط الإسلام عند اختيار الزوجة أن تكون ذات دين وخلق ، حتى يرضع أبناؤها منها حسن الخلق قبل أن تلقنهم إياه ، يقول الشاعر:

وليس النبت ينبت في جنان

كمثل النبت ينبت في الفلاة

وهل يرجى لأطفال كمال

إذا ارتضعوا ثدي الناقصات

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾[الأعراف: ٥٨].والبيت كالبلد ، فالبيت المؤمن الطيب يعطي أولادا مؤمنين طيبين صالحين والعكس صحيح ، من هنا يظهر أثر البيئة والوسط في التربية ، فالأسرة هي التربة الخصبة للتربية البناءة المثمرة.

فالأسرة مسؤولة عن توجيههم والأخذ بيدهم ، فهم أمانة في عنقها ونعمة من نعم اللّه على الأسرة ولكنها نعمة مشفوعة بتكليف وهو التربية ولولا هذا التكليف لكانت نعمة الأولاد عبثا من العبث ، والإنسان مسؤول يوم القيامة عن هذه النعمة هل حافظ عليها أم ضيعها؟ يقول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

ويقول رسول اللّه ﷺ: « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[٢].

---

(٢) رواه البخاري

الصياغة العقدية والنفسية:

إن الأسرة مسؤولة عن الصياغة التي تصوغ عليها أولادها من الناحية العقدية والنفسية والعاطفية. فهم يولدون كالصفحة البيضاء سليمة من كل خدش أو وسخ أو عيب ، إنهم يولدون على الفطرة التي فطر اللّٰه الناس عليها ، فطرة مهيئة لعبادة اللّٰه وإتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه فطرة مسلمة مؤمنة ، فطرة لها القابلية لفعل الخير والابتعاد عن الشر.

فالفطرة كالجهاز المبرمج على طريقة خاصة إما أن يحافظ أصحابه على برمجته وينموها ويطوروها ، وإما أن يضيعوها ويخربوها. فكما أن الطفل مهيأ أصلا لتعلم اللغات لتوفر وسائل التعليم عنده من سمع وبصر ولسان وقدرة فطرية خلق عليها كامنة في عقله تمكنه من تداول ما يتداوله الناس من كلام ، وإبداع أسلوب خاص في الكلام والكتابة أيضاً ، أو ما يسميه علماء اللغة المعاصرون بإنتاج كلام جديد. فكذلك فطرة الطفل مهيأة

للإيمـان بـالله سبحانه كأنمـا برمجت في السـابق ، ولا شك في ذلك ، مـا دام الله سبحانه قد أشـار إليـه في أكثر من آية من القران الكريم.

يقول الله عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الأب والأم والدور المشترك:

ولكـي تتحقـق الإسـتجابة لمطالـب الفطـرة ، لابد من أداء الأسرة ، ممثلة في الأب والأم ، ودورهما والقيـام بمسـؤوليتهما التربويـة الإيمانيـة. يقـول رسـول

اللّه ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ».(٣)

نستنتج من هذا الحديث النبوي ما يأتي:

١. أن المسؤول عن تربية الولد هو الأب والأم وليس أحدهما.

٢. أن المولود يولد على فطرة سوية مهيئة للإسلام.

٣. أن الأبوين اليهوديين يهودان مولودهما حينما يدرك ويميز ، كذلك يفعل الأبوان النصرانيات أو المجوسيان مع ابنهما أو ابنتهما.

٤. أن تغيير فطرة المولود ليس محصوراً في هذه العقائد الثلاث ، بل جيء بها فقط للتمثيل ، أما لائحة العقائد الفاسدة فهي كثيرة كالهندوسية والسيخية والبوذية والكونفوشيوسية والوثنية ، تضاف إليهما

(٣) متفق عليه.

العقائد والمذاهب الحديثة كالشيوعية والليبرالية والعلمانية.

٥. أن مدار التربية البارز هو الجانب العقدي ، أي المحافظة على فطرة المولود الأصلية وهي الفطرة المهيأة للإيمان والإسلام. أما التربية الجسمية من إطعام ورعاية مادية وتهيئة لكسب القوت فإن جميع الحيوانات والطيور تقوم بها تجاه صغارها. وهذا لا يقلل من شأنها بل هي ضرورية كذلك.

٦. أن الآباء اليهود أو النصارى أو المجوس يغيرون فطرة أبنائهم وينحرفون بها عن نهجها الأصلي ، فتنشأ معوجة غير مستقيمة ، منحرفة غير مستوية.

أما المطلوب فهو المحافظة على الفطرة وتزكيتها بالتربية الإيمانية وتنميتها حتى تنهض بفضائل الأعمال.

إذا كان الهدف الأسما للتربية الأسرية من منظور الإسلام هو بناء الشخصية المسلمة القوية

الفاعلة ، فإن ذلك ينطلق من بداية حياة الإنسان ، مرحلة الصبا والطفولة بالمحافظة على الفطرة من خلال التربية الإيمانية والتربية الخلقية والتربية النفسية والتربية العاطفية والتربية العقلية والتربية الجسمية.

ما المقصود بالشخصية المسلمة؟

إنها الإنسان كما يريده الله سبحانه وتعالى أن يكون ، مؤمنا مسلما صالحا مجاهدا داعيا إلى الله آمرا بالمعروف وناهياً عن المنكر.

إنه من تحقق فيه الهدف من التربية ، هو السعادة في الدنيا ، ولا يمكن أن تتحقق هذه السعادة إلا بإتباع ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ. فكتاب الله منهاج حياة ، منهاج دين وأخلاق وتربية ، فبإتباعه ينجو الإنسان من مهالك الدنيا والآخرة ، ولذلك خاطب الله سبحانه نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [طه: ١ –٢].

وإذا أمعنا النظر في فاتحة الكتاب نجدها تتضمن منهجاً تربوياً مهما يتمثل فيما يأتي:

أولاً: الإيمان.

ثانياً: العبادة.

ثالثاً: منهج الحياة.

« لقد ذكر ابن عمر رضي الله عنهما في أثر صحيح محدثاً عن حال الصحابة قال: لقد عشنا برهة وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وقد ذكر الله في الفاتحة العقائد أولاً ، ثم ثنى بالعبادة ، ثم ذكر منهاج الحياة مما يدل على أن منهاج الحياة الصحيحة تكون أثراً عن عبادة وعقيدة صحيحة ، من هنا فنحن نركز على العقيدة أولاً ثم على العبادة ثانياً ثم على منهاج الحياة ».

وهذا الخطة التي سارت عليها الفاتحة تصلح خطة لتربية الأولاد تربية إسلامية فيجب في البداية أن نعرفهم بعقيدتهم حتى يؤمنوا بها ، ثم نحثهم على التطبيق والممارسة الإيمانية من خلال أداء بعض العبادات خاصة الصلاة ثم التدريب على الصيام

والمعــاملات الإســلامية الــتي يمكــن أخــذها عــن الوالـدين نظريـاً وتطبيقيـاً مـن خـلال سـلوكهما « أي القـدوة الحسـنة » وحينمـا يجمـع الولـد بـين الأمـرين « العقيـدة والعبـادة » فإنـه سـيكون قـد تلمـس طريـق الهدايـة والاسـتقامة ومنهجـه في الحيـاة وذلـك حينمـا يصير شاباً يافعاً يعتمد على نفسه في المقام الأول.

وإذا أردنا أن نجمل أهـداف التربيـة الـتي يجـب على الأسـرة المسلمة أن تقـوم بهـا ، فإننـا سنحصـرها فيما يأتـي:

١. المحافظة على فطرة الطفل التي فطِرَ عليها ، وهو أنه ولد مهيأ للتوحيد.
٢. تقوية عناصر هـذه الفطـرة فيـه ، بتربيتـه إيمانياً وروحياً.
٣. تهيئته لكي يكون مسلماً صالحاً نافعاً ، يقوم بدوره في المجتمع ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله.

❀❀❀